المجلد: 16 العدد: 02 السنة: جوان 2020 الصفحات 109- 125

البنيوية التكوينية في النّقد العربي الحديث

بين الأصول والتّطبيقات

Formative Structuralism in Modern Arab Criticism

Between Assets and Applications

نريمان بوشنقير[1]،*

[1] *كلّيّة الآداب والعلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة، جامعة باجي مختار (عنابة) (الجزائر)، etudeuni.2020@gmail.com*

مخبر الأدب العام والمقارن . جامعة باجي مختار ، عنابة (الجزائر).

تاريخ الإرسال: 2020/05/13 تاريخ القبول: 2020/06/18

الملخص:

اقترنت نهاية القرن 19م و بداية القرن 20م بتضافر العديد من جهود الباحثين والنقّاد من أجل السعي قدما نحو ولادة فكر جديد وإحداث الكثير من التغيُّرات. خاصّة وبتتبّع حركيّة الفكر النّقدي نجده قد مرّ بعدّة مراحل متباينة متأثّرا بالأفكار والرؤى النّقدية الأدبية الغربية، غير أنّ محور اهتمامنا انصبّ حول مدى تجلّي نقد المدرسة البنيوية التكوينية في الخطاب النّقدي الأدبي العربي الحديث، هذا التّجلي الذّي كان واضحا و جليا من خلال عدد كبير من أفكار ورؤى نقّاد الوطن العربي؛ وبالتالي ساد فكر هذه المدرسة على أفكار نقّادنا، وجعلهم يتّجهون نحو بنائيّة النّص الأدبي، وينظرون إليه نظرة سوسيوجدلية، على أساس انغلاقه على مكوّناته النصيّة مع ضرورة إيجاد بنية تاريخيّة تفسّره..

الكلمات المفتاحية:
البنيوية التكوينية؛
رؤية العالم؛
الفهم؛
التّفسير؛
الدّراسة السّوسيولوجية؛

ABSTRACT:

The end of the nineteenth century and the beginning of the twentieth century were coupled with the concerted efforts of many researchers and critics in order to strive for the birth of a new thought and bring about many changes. By tracing the movement of critical thought, we find that it has gone through several different stages influenced by western literary ideas and critical visions. However, our focus was on the visions of critics of the formative structuralism school in modern Arab critic discourse. Consequently, the thought of this school prevailed over the ideas of our critics, and made them move towards the constructive literary text, and view it with a socio-argumentative view, on the basis of its closure on its textual components with the need to find a historical structure that explains it.

Keywords:
Formative structuralism , vision of world, comprehension, interpretation, Sociologic study,

تمهيد:

اعتمدت كثير من المناهج النّقدية على دراسة الأعمال الأدبية قصد استكناه خباياه، فاتّخذت جملة من الإجراءات والتقنيات المنهجيّة التي قد تختلف بالضرورة عن بقية الإجراءات والتّقنيّات لدى منهج نقدي معيّن. كما يدرك المتتبّع لحركيّة الفكر النّقدي الأدبي أنّه سار وفق مجموعة من الخطوات التي سادت منظومته الثقافية، وهذا أمر طبيعي في ظلّ تصاعد أزمة فكر نقدي أدبي فكان لا بدّ من ولادة فكر جديد ثوري يحاول تجاوز النّقائص من خلال طرح مبادئ فكرية جديدة تلائم متطلّبات الإنسان في تلك المرحلة.

استهلالا بالمناهج السّياقيّة الّتي تحاول دراسة العمل الأدبي انطلاقاً من الظّروف الخارج نصّية باعتبارها عناصر فعّالة في ولادة العمل الأدبي وتفسيره؛ نذكر منها: المنهج التاريخي، والاجتماعي، والنّفسي. غير أنّ عجز هذه المناهج عن تفسير بعض الظواهر الأدبية استدعى التفكير لخلق مناهج نقديّة تهتمّ بالدّراسة الانعزالية للنّصّ بعيدا عن سياقاته فاصطلح عليها بالمناهج النّصّيّة؛ كالبنيوية الشكلية، والأسلوبية، والتفكيكية... فهي مناهج تحاول تفكيك العمل الأدبي انطلاقاً من النصّ وصولاً إلى النّصّ، كما تعتمد على مبدأ القراءة المحايثة Lecture Immanence * في فك شفرات العمل الأدبي إذ النص الجسد اللّغوي المترفّع عن السياق والمكتفي بذاته.

لكن المتأمّل يدرك عجزها عن تكريس الهيمنة التّحليلية لذلك الجسد اللّغوي كونها أغفلت عدّة أطراف أثناء الدّراسة التحليليّة للأدب، منها: محيطه الاجتماعي والسياسي والدّيني والثّقافي وغيرها. كما أنّ الدراسة الداخلية له ستكون بمنأى عن أي مؤثّر خارجي بإمكانه الإسهام في ولادة جماليّة للأدب، فما كان على النّقد الأدبي سوى توسيع زاوية القراءة النقدية للأدب لتكوين مناهج جديدة لا تؤمن بموت المؤلّف ولا بانغلاق البنية إنّما تصرّ على إمكانية الانفتاح عليهما.

فاتجهت هذه المناهج التّكوينية في تحليلها إلى التّركيز على بؤر ثلاث هي:

-المؤلّف.

-النّصّ.

-السّياق.

فالمؤلّف و ما يحمله من فكر إيديولوجي يترجمه ضمن عمل أدبي له علاقة بأحوال مجتمعه من بعيد أو قريب؛ إذ لا يمكننا الجزم بإيديولوجيّة النّصّ فحسب بل إيديولوجيتّه وليدة لذات مبدعة وظروف اجتماعيّة أخرى، لتكون البنيوية التكوينية ردّا على من يرى النّصّ بنية منغلقة على ذاتها، لا تملك أيّة علاقة بمحيطها الاجتماعي، فالبنيوية التكوينية منهج سوسيولوجي يرى النّصّ من زاوية علاقته برؤى فئات أصحابها؛ فالنّصّ لا ينغلق على ذاته وإنّما يماثل بيئته يحمل هموم طبقته التّي ولّدته، فالجمالية الأدبية لا تتحقّق إلّا بربط الأدب بساحته الاجتماعية والتي قد تتعلّق بالسّياسة، أو الاقتصاد، أو الدّين، أو الثّقافة وغيرها. لتكون إشكالية العمل متمركزة حول:

– كان للطّرح الغولدماني عدّة خلفيات جعلته يؤسّس لبنيويته في إطارها الاجتماعي؛ لذلك كانت أفكاره في بداية نشأتها امتدادا لأفكار السوسيولوجيين في نهاية القرن 19م وبداية القرن 20م. وإذا اعتبرنا أنّ البنيوية التكوينية قد مثّلت مرحلة جديدة للمناهج السوسيولوجية؛ فما المقصود بالبنيوية التكوينية؟

–تمكّنت المناهج النقدية التقليدية من التاريخية والاجتماعية والنفسية من الحصول على الحظ الأوفر في كتابات نقدية عربية من أمثال طه حسين، و محمود عبّاس العقّاد و غيرهم، هل قدّمت البنيوية التكوينية لنقّاد الوطن العربي ما وفّرته تلك المناهج؟ هل استطاعت سوسيولوجية لوسيان غولدمان أن تفرض وجودها على السّاحة الأدبية النقدية العربية؟

البنيويّة التكوينية: Structuralisme Génétique

اتخذ مصطلح البنيوية التكوينية عدّة مفاهيم لغوية وذلك نتيجة التّرجمة "العلمية الاصطلاحية للأصل الفرنسي: .le structuralisme génétique. فإذا كانت كلمة structuralisme مشتقّة من كلمة structure أي البنية، فإنّ كلمة génétique بقيت محل خلاف تتوزّعها التّرجمات المختلفة وتنتقّل سماعا، و تواترا من البعض إلى البعض الآخر، فتارة يقال إنّ معناها التوليدية، و تارة أخرى التكوينية"،[1] ونتيجة لذلك راح كل فريق ينتصر لاصطلاحه، ويروّج لاستعماله، الشيء الّذي نقرأه في الدّوريات والمقالات، والأبحاث النقدية العربية... إنّ أوّل معاني كلمة génétique هو دلالتها على الجانب الجيني والوراثي الخاص بمجال الطب وعلم الأجنّة والتّهجين الّذي يضطّلع به علم الوراثة l'hérédité وقوانينه.[2] وهي كلمة مشتقّة من الأصل gène أي الجينة الوراثية التي اشتقت منها كلمات généalogie أي النسب و السلالة، وgenre أي النوع والعرق المتضمنة في كلمة: génération أي جيل... والصفة générateur أي مولد، والفعل générer أي ولّد، وكلها خاصة بحقل البيولوجيا".[3]

ما زال الفريق الذي ترجم مصطلح génétique بالتوليدية مصرا على صوابه؛ وهو ما يجعلنا نقف بجانبه حينا وتعارضه حينا آخر، ذلك أن الأمر يتعلق بالولادة و التوارث، أي إن الشيء موضوع البحث هو ما نستقصي كيفية مجيئه للعالم مرورا بمراحله الجينية والأصول التي صدر عنها كي نبرز وجوده في المرحلة التي وصلنا فيها والحالة التي بلغنا بها، وعليه فما يضعف من هذا المأخذ هو أن بهذا الشكل يكون أقرب إلى مجال الطب والأجنة والسلالات؛ أي إلى علم البيولوجيا أكثر منه في مجال النقد الأدبي. هذا ما يجعلنا نقر بصواب الترجمة الثانية التي وُضعت كمقابل لمصطلح génétique وهي التكوينية. ونجد لها ما يبررها كمصطلح نقدي بالدّرجة الأولى لأنها مستنبطة من الأصل الاشتقاقي la genèse التي تعني التكوين أو التكون الدالتان على مجموعة الأفعال أو العناصر التي تساهم في تشكل الشيء. ومن جهة أخرى فالاصطلاح:

Génétique ⟵ Genèse، أي: تكوين ⟵ تكوينية، يختص في الاستعمال الفرنسي الأصلي بميدان النقد الروائي كمجال خصوصي أول لهذا المصطلح، وهو ما يبرره حلوله في المرتبة الأولى قاموسيا كمقابل ومعنى أولي لكلمة[4] génétique يتبين مما سبق أن المصطلح الأقرب للترجمة الحقيقية لعبارة le structuralisme

génétiqueهو عبارة "البنيوية التكوينية" التي تدل فعلا على المجال النقدي الأدبي –عموما– والروائي – خصوصا–.

أما على صعيد الاصطلاح فتعددت التعاريف و تعددت معها أسسها المستقاة من بيئة أصحابها، فبعد ما قدمناه من تعريف لغوي و ما لحقه من ترجمات مختلفة لهذا المنهج النّقدي يبدو لنا "أنها [نقصد البنيوية التكوينية] لا تشير إلى أي بعد زمني، فمعناها الأول و الأخير يكمن في الدلالة التاريخية للعمل [الأدبي] في سياقه الثقافي الشامل وليس في مراحله المتسلسلة زمنيا بالمعنى الدياكروني للكلمة".[5]

إنّ المتأمّل الجيّد لمصطلح البنيوية التّكوينية يجد نفسه مجبرا على الوقوف أمام فلسفتها التي بَنَتْ عليها دعائمها. حتّى يتسنّى لها أن تدرس العمل الأدبي وأن تفكّ شفرته، وعليه «فالبنيوية التكوينيّة تسعى إلى إعادة الاعتبار للعمل الأدبي والفكري في خصوصيّته بدون أن تفصله عن علائقه بالمجتمع والتّاريخ، وعن جدلية التفاعل الكامنة وراء استمرار الحياة وتجدّدها. مع المنهج البنيويّ التكويني، لا يلغى "الفني" لحساب الإيديولوجي، ولا يؤلّه باسم فرادة متمنّعة عن التّحليل».[6]

يبدو ممّا سبق أنّ البنيوية التكوينية تنظر للعمل الأدبي من زاوية علاقته بالواقع الاجتماعي والاقتصادي والدّيني والتّاريخي والفكري للمجتمع، وعليه فالعمل الأدبي ما هو إلاّ بنية لغويّة مرتبطة بواقعها الذي عمل على ولادتها، وبالتّالي فهي تحلّل العمل الأدبي باعتباره بنية غير مكتفية بذاتها بحاجة إلى مَنْ يفسّرها فهي إذن بنية متفتّحة على الخارج الإحالي. إنّها تهدف إلى عقد صِلة بين الأدب والمجتمع.

إنّ مُساءلة البنيوية التّكوينيّة للواقع، قد نعتبرها خطوة جديرة بالذّكر؛ فلولا الواقع لما وجد الفنّ، وصحيح أنّ الأدب في حقيقته و كلّيته رؤية شمولية عن عالمنا الّذي تعيش فيه يماثله على شكل بنى فكريّة متحوّلة زمنيا مدفونة في نفس مبدعة، وبهذا الشّكل يبدو أنّ البنيوية التكوينية قد تجاوزت قصور البنيوية الشكليّة التي تغلق العمل الأدبي وتعتبره جسداً لغوياً مكتفيا بذاته. فجاءت البنيوية التكوينيّة لتنقذ ذلك الجسد اللغوي وتفسره انطلاقا من محيطه الخارجي. هذا ما سمح للبنيوية التكوينيّة بأن تكون «فلسفة متكاملة ذات منظور نقديّ يتجاوز "سلبيّة" النقد إلى استشراف إيجابيّة تنسجها الجدليّة القائمة بين الذّات والموضوع، تلك الجدلية الممثّلة لجوهر كل علم تكويني [ذلك أنّ] البنيوية التكوينيّة، في اعتبارها لكلية الظواهر وترابطها، تنطلق من نقد الواقع القائم النّاقص، من زاوية استحضار ما يتكوّن عبر الجدليّة المحايثة»،[7] وعليه تهدف البنيوية التّكوينية إلى عقد مماثلة بين رؤى العالم والأدب، هذه الفكرة لا نزعم أنّها تتميّز بالجدّة ولكنّنا نعتبرها ثورة على من ألغى هذه المماثلة وجعل النّصّ وليد شكله اللغّوي، غير أنّ ما دعت إليه البنيوية التكوينية قد وُجدت أصوله لدى المنهج الاجتماعي والتّاريخي إلّا أنّ جدّة الطّرح الغولدماني تتجسّد في إيجاد بنية دالّة تجمع بين إيديولوجيات مختلفة تحكمها رؤية متشابهة؛ فالأدب يمثّل أحد أشكال التطوّر الاجتماعي.

الجهاز المفاهيمي للبنيوية التّكوينيّة:

اعتمدت البنيوية التكوينية العديد من الإجراءات التّحليليّة ذات خلفية سوسيولوجية تساعد ناقدها على استكناه جوهر النّصوص الأدبية، فطرح غولدمان جملة من الأدوات يمكن أن نعتبرها تقنيات تفسّر العلاقة الموجودة بين البنى الذّهنية وربطها بطبقتها الاجتماعية.

أوّلا: الفهم:

استطاع غولدمان أن يوسّع من نطاق تحليله للعمل الأدبي، وذلك من خلال جعل بنيويّته قائمة على دعائم دقيقة. فما كان سوى أن يستهل القراءة الأدبية بأوّل إجراء نقدي متمثّل في الفهم؛ و يعتبِره الخطوة الأولى في استقراء كُنْهِ العمل الأدبي، إذ «تقتضي مرحلة الفهم البحث في بنية النّص الدّاخليّة ومكوّناتها الجمالية والفكريّة، دون الاستعانة بوسائط خارجيّة »؛[8] أي إنّها تنظر في خصائص العمل الرّوائي اللّغوية والأسلوبية دون الخروج إلى عناصر سياقيّة خارج البنية اللّغوية للعمل الرّوائي. وعليه فإنّ مرحلة الفهم تعدّ فعلاً «بنية العمل الدّاخلية»؛[9] بمعنى آخر يجب على المحلّل أو النّاقد في مرحلة الفهم أن يهتم بوصف جميع العلاقات التي تشكّل بنية العمل الرّوائي دون تخطّي حدوده اللّغويّة. فالفهم بهذه الطّريقة ما هو إلاّ «مسألة تتعلّق بالتّماسك الباطني للنّص، وهو يفترض أن تتناول النّص حرفيًّا، كلّ النّص، ولا شيء سوى النّص».[10] وبهذا فالفهم عملية تحليلية وصفية تفكيكية قائمة على الاستقراء وصلا إلى بنية دالّة، فهي تهدف إلى دراسة النص بمعزل عن جميع المؤثّرات الخارجية عنه، إنّنا نحاول ضمن هذه المرحلة أن نستشفّ أبرز سِمات الأثر الأدبي على المستوى اللّغوي والبنائي من تشكيل فنّي وزخرفة لفظية وبراعة في الخيال قصد استضاءة البنية الفنية التّي تعتمد عليها البنية الدالّة المحايثة للأدب كمرحلة أولى ثمّ دمج هذه السّمات في بنية كلّية أوسع وأشمل كمرحلة ثانية وأخيرة.

ثانيا: التّفسير:

يعدّ التّفسير من المفاهيم الإجرائية للبنيويّة التكوينية لدى لوسيان غولدمان؛ ويتحدّد في جمع النّاقد بين النّص الأدبي وشتّى الظواهر الأخرى خارج النّص بتصوّر موضوعي، ويعدّ المقصود النّهائيّ في النقد الأدبي الاجتماعي، نربط من خلاله بين بنيتين الخاصّة و العامّة للمجتمع، ويأتي كإجراء بعد مرحلة الفهم وما نقدّمه من استنتاجات نسقية للبنية الفنيّة.[11] يكون التّفسير بهذا المعنى وبهذا الشّكل قد منح لفكر غولدمان ولمنهجه العلمي الطّابع السّوسيولوجي للأدب، فغولدمان نفسه يعرف التفسير بقوله: "إدراج بنية دلالية في بنية أخرى أوسع منها تكون فيها الأولى جزءا من مقوماتها"؛[12] هذا ما يعني أن التفسير هو العنصر المكمل للفهم، إذ من دونه يستحيل تفسير بنية العمل الأدبي. فإذا كان الفهم يتميّز بالتحليل الداخلي للعمل الرّوائي فإنّ التفسير يتميّز بالتّحليل الخارجي للعمل الرّوائي، إنّه يفتح البنية الأدبية إلى أفق اجتماعي بحث، أفق بإمكانه أن يوسّع من دائرة التحليل لدى غولدمان.

تهتم عملية التّفسير بإبراز الذّات الفردية والتي هي ذات جماعية داخل البنى الذهنية بطريقة دالة،[13] كما لا يمكن إبراز هذه الرؤية الشمولية إلّا وفق سُلّم الفهم؛ فهما متكاملان ومترابطان ومنسجمان وعلى سبيل التّوضيح

يقول غولدمان "كيف أنّ فهم خواطر أو مآسي راسين هو نفسه الكشف عن الرؤية المأساوية للبنية الدالة... في حين أنّ فهم البنية الجانسينية هو نفسه تفسير لتكوين الجانسينية المتطرّفة... كما أنّ فهم العلاقات الطبقية في المجتمع الفرنسي للقرن السّابع عشر، هو تفسير لتطوير النبالة المثقّفة"،[14] إذن فالفهم متعلّق بالبحث عن البنية الدالّة أمّا التفسير يكشف عن بنية كليّة وأوسع تربط الإبداع الأدبي بالجماعة.

ثالثا: رؤية العالم: La vision du monde

أخذ مفهوم رؤية العالم مكانة كبيرة في منهج غولدمان، يرى صاحبه أنّ كلّ عمل أدبي يحمل أفكارا ورؤى لها علاقة بفكر ورؤية فئة اجتماعية، ويذهب في تعريفه "إنّ الرؤية للعالم هي بالتّحديد، هذه المجموعة من التّطلعات والإحساسات والأفكار التي توحّد أعضاء مجموعة اجتماعية، وفي الغالب أعضاء طبقة اجتماعية، وتجعلهم في تعارض مع المجموعات الأخرى، إنّها بلا شكّ خطاطة تعميمية للمؤرّخ، ولكنّها تعميمية لتيار حقيقي لدى أعضاء مجموعة يحقّقون جميعا هذا الوعي بطريقة واعية ومنسجمة"،[15] يرجع غولدمان رؤية العالم للجماعة وليس للفرد، فهي رؤية شمولية تتّسع رقعتها لتفصح عن تطلّعات وأحساسيس جماعية لا فردية، كما نقول من الطّبيعي أن يكون الفرد في تزاوج دائم بين أفكاره وأفكار جماعات أخرى، فالفرد والمجتمع في تقابل –أحيانا– وفي تعارض أيضا –أحيانا أخرى–، "فالأدب والفلسفة من حيث إنّهما تعبيران عن رؤية العالم... فإنّ هذه الرؤية ليست واقعة فردية، بل واقعة اجتماعية تنتمي إلى مجموعة وإلى طبقة"؛[16] يتبيّن أنّ البنية الفكرية للأدب في انسجام تام مع بنيتها الجماعية، إلّا أنّ ما يقوم به الفرد المبدع هو رفع البنية الفكرية إلى مستوى الإبداع والخيال. إنّ ما توصّلنا إليه لا يعني نفي الفرد المبدع، لأنّ دوره يظلّ حاضرا أثناء عملية الإبداع، غير أنّ تعبيره قد يحقّق رؤية العالم بطريقة لا شعورية فهي مترسّخة في فكره.

عُدّت رؤية العالم بؤرة للتّلاقي بين عدّة شرائح من المجتمع تسودهم اعتراضات وعلل على خط متوازٍ ممّا خوّل لها أن تكون "جوابا شاملا ليس على مشكل و إنّما على مجموع المشاكل القائمة بالنّسبة لمجموعة أو طبقة اجتماعيّة"،[17] وعليه اعتبرت رؤية العالم طريقة في حل مشكلات اجتماعية تعترض زمرة من النّاس مشتركين في نفس الهموم لتجسّد حلما كان شبه بعيد على تجاوز الصّعاب فهم مقمحون لا يجمعهم رابط سوى رؤية شموليّة تحكمهم، لتصعد بذلك سلّم المعالجة الاجتماعية بدل الاكتفاء بطرحها.

كثيرا ما نتساءل من يتبنّى طرح و معالجة مشكلات فئة عريضة من المجتمع؟ ما ننوّه به أنّ النّخبة والمتمثّلة في الفرد المبدع مختلفة جدًّا عن بقية أفراد المجتمع العادية؛ إذ بمقدورها صياغة رؤية العالم تتجاوز بها مستوى وعي الجماعة، فباستطاعتها التعّبير عن عريضة من الأحاسيس والأفكار الّتي يحملونها عن الجماعات. إذن فهي الفلسفة التّي تنظر إليها فئة اجتماعية إلى القيم والوجود والذّات الفردية بحيث تكون مخالفة لفلسفة فئة اجتماعية أخرى.

إلاّ «مسألة تتعلّق بالتّماسك الباطني للنّص، وهو يفترض أن تتناول النّص حرفيًّا، كلّ النّص، ولا شيء سوى النّص».[18] وبهذا فالفهم عملية تحليلية وصفية تفكيكية قائمة على الاستقراء وصلا إلى بنية دالّة، فهي تهدف إلى

دراسة النص بمعزل عن جميع المؤثّرات الخارجية عنه، إنّنا نحاول ضمن هذه المرحلة أن نستشفّ أبرز سِمات الأثر الأدبي على المستوى اللّغوي والبنائي من تشكيل فنّي وزخرفة لفظية وبراعة في الخيال قصد استضاءة البنية الفنية التّي تعتمد عليها البنية الدالّة المحايثة للأدب كمرحلة أولى ثمّ دمج هذه السّمات في بنية كلّية أوسع وأشمل كمرحلة ثانية وأخيرة.

رابعا: البنية الدالّة:

لكلّ عمل أدبي مستويين الأوّل يكمن في بنيتيه الشكلية أمّا الثّاني فيقوم على ما وراء البنية الفنيّة أي عالم نشأة هذا الفن الأدبي، غير أنّ الوصول إلى الرؤية العامّة التّي تحكمه لا بدّ من تواجد بنى دالّة عنه. تفسّره وتقدّمه ضمن الوعي الجماعي له. تعتمد البنية الدالّة على عمليتي الفهم و التّفسير؛ فبعد الكشف عن دلالة العمل الأدبي وطبيعته يأتي الحكم على جمالية هذه القيم وذلك مماثلة بإحدى رؤى العالم لدى جماعة بعينها. وقد يعبّر المبدع عن صور خياله المختلفة وعلى النّاقد السوسيولوجي البحث عن هذه البنى السطحيّة وتفكيكها بهدف الوصول إلى نظام عام يحكم خياله وهو البنية الدالّة. والبنية الدالّة في تعريفها لدى غولدمان عبارة عن وحدة أجزاء كلية للنص وعلاقتها الداخلية لعناصرها، والانتقال بعدها إلى رؤية دينامية تبرّر نشأتها الجماعية[19] يصرّ غولدمان على الانسجام الكلّي بين بنيات العمل الأدبي والظّروف المنتجة له، وهو انسجام يعتمد على تقصّي جميع المضامين الخيالية وربطها بإحدى مستويات الوعي الجمعي للأدب. وتعبّر البنية الدالّة كذلك عن «التحالف الكلّي الواقع بين رؤية العالم التي يجسّدها النّصّ في الواقع أيّ البنية الخارجية، وعناصره الداخلية الشّكليّة؛[20] أي أنّها بمثابة القالب الذي يحمل الرؤية الاجتماعية للواقع ويتمّ فيما بعد نقلها داخل بنية النّص الأدبي. سواء كان ذلك عن طريق التّنميق اللّغوي (الشكل) أو عن طريق المعاني المحمّلة ضمن العمل الفنّي.

الأصول المنهجية و الفلسفية للبنيوية التّكوينية:

تمخّضت البنيوية التكوينية من فلسفة البنيوية العامّة التي بَنَتْ عليها دعائمها «فالبنيوية التكوينيّة تسعى إلى إعادة الاعتبار للعمل الأدبي والفكري في خصوصيّته بدون أن تفصله عن علائقه بالمجتمع والتّاريخ، وعن جدلية التّفاعل الكامنة وراء استمرار الحياة وتجدّدها. مع المنهج البنيويّ التكويني، لا يلغى "الفنّي" لحساب الإيديولوجي، ولا يؤلّه باسم فرادة متمنّعة عن التّحليل»؛[21] يبدو أنّها تنظر للعمل الأدبي من زاوية علاقته بالواقع الاجتماعي والاقتصادي والدّيني والتّاريخي والفكري للمجتمع، لتحلّله كبنية غير مكتفية بذاتها بحاجة إلى مَنْ يفسّرها فهي بنية متفتّحة على الخارج؛ لأنّ الأدب هو ذلك البنية اللّغوية الكبرى أمّا المجتمع ما هو إلاّ بنية صغرى.

تجاوزت البنيوية التكوينية عجز البنيوية الشكليّة التي تغلق العمل الأدبي وتعتبره جسداً لغوياً بامتياز. فجاءت البنيوية التكوينيّة لتنقذ ذلك الجسد اللغوي وتفسّره بمحيطه الخارجي. هذا ما منح للبنيوية التكوينيّة بأن تكون فلسفة متكاملة ذات منظور نقديّ يتجاوز "سلبيّة" النقد إلى استشراف إيجابيّة تنسجها الجدليّة القائمة بين الذات والموضوع، تلك الجدلية الممثّلة لجوهر كل علم تكويني البنيوية التكوينيّة، في اعتبارها لكلية الظواهر وترابطها، تنطلق من نقد الواقع القائم النّاقص، من زاوية استحضار ما يتكوّن عبر الجدليّة المحايثة».[22]

إنّ الحديث عن العلاقة الموجودة بين الإبداع الأدبي والبيئة التي نشأ فيها تقودنا «إلى استقراء التاريخ الفكري والفلسفي الذي سعى للبحث في علاقة الإنتاج الفني بالشّروط الاجتماعية التي أنتجته. وفي هذا السّياق نجد أنّ أبكر تصوّر نظري حاول البحث في علاقة الأدب بمحيطه الاجتماعي، يعود... للعلّامة بن خلدون، الذي أفرد فصلاً من المقدّمة بعنوان "في التفاوت بين مراتب السيف والقلم في الدّول" وسعى من خلاله إلى تحديد وظيفة ودور المثقّف الشّاعر من مسار بناء الدّولة العصبيّة، عبر مراحلها الثّلاث. وبيّن أهمية الأدب في سيرورة بناء الوعي الثّقافي للعصبة الحاكمة، حين خصّه بالدّور الأساسي في مرحلة استقرار الدّولة وتوسّعها»[23] إنّ الطرح الخلدوني هذا يمكن أن نعتبره كملمح من ملامح جهوده في محاولة لتأصيل البذور الأولى لعلاقة المبدع بعالمه الخارجي، نفس الأمر ينطبق مع ما جاء به جون باتيست فيكو Jean Batiste Vico [1668م-1744م] من حيث إنّه قدّم تفسيراً ماديًّا للأدب ومع –أيضاً– مدام دوستايل Mme de Staël [1766م-1817م] من خلال ما قدّمته من أفكار في مجال علاقة أو بالأحرى تأثير البيئة الاجتماعية المتمثّلة في [دين+سلوكات+عادات وتقاليد اجتماعية] في الأدب. فيما بعد تطوّر هذا البحث السّياقي مع كل من أوغست كونت Auguste Conte [1798م-1857م] وسانت بوف Sainte- Beuve[1804م-1869م] وتلميذه هيبوليت تين Hypolitte Taine [1828م-1893م].[24]

نستنتج ممّا سبق أنّ كل هذه الأُطروحات كانت بمثابة الدّعائم الأساسية لقيام علم سوسيولوجيا الأدب – إن لم نقل لدراسة الصلة الموجودة بين الأدب و المجتمع–.

يذهب منظِّروا النقد السوسيولوجي في تأسيسه وتأصيله «إلى ثلاثة روافد أساسية أسهمت في بلورة التصوّرات الأساسية لدى مؤسّس النقد السوسيولوجي جورج لوكاتش وهذه الرّوافد هي:

– الرافد الأول: المادية التاريخية.

– الرافد الثاني: علماء الاجتماع الألمان، ومنهم ماكس فيبر Max Weber [1864م-1947م]، الذين قاموا بدراسات في الإبداع والمجتمع والإيديولوجيا.

– الرّافد الثالث: المتمثل في أعمال مدرسة فرانكفورت السّوسيولوجيّة، الخاصة بالنقد الاجتماعي والتاريخي والجمالي، ومنها على الخصوص أعمال أدورنو W. Adorno، وهوركايمر M Horkeimer».[25]

شكّلت جميعها الخلفيّة الأساسية للفكر اللّوكاتشي حتّى يكشف عنه في مجال سوسيولوجيا الأدب. ويذهب لوكاتش في تعريفه للأدب بأنّه «معرفة بالواقع ناتجة عن رؤية وتحليل، وليس انعكاساً سطحيًّا لمظاهر الواقع الذي يعطينا نصوصاً سمتها الأساسيّة هو الوصف الإثنروغرافي»،[26] يبدو أنّ هذا التّعريف قد عكس لنا –عن حقٍّ وحقيقة– نظرة لوكاتش للأدب كونها نظرة واقعية اجتماعية انبثق منها الأدب و عكسها في قالبه اللّغوي.

وعليه يمكن القول إنّ «جلّ الجهود التي بُذِلَت في نطاق المنهج البنيوي التكويني (Structuralisme Génétique)، كانت موجّهة بالدرجة الأولى إلى **الأعمال الأدبيّة الروائيّة**...»[27] لأنّ الرواية بإمكانها أن تحمل واقعها وتجسّده في شكل حلقات متسلسلة متدرّجة متتابعة، بل إنّ الرواية بإمكانها أن تشحن واقعها من خلال حملها لـ «تناقضات اجتماعية... ذلك أنّ الصّراع، والمواجهة بين الأبطال»[28] يجعل من الرواية أصفى وأنقى في

تجسيد طبقتها الاجتماعية، كما تجدر الإشارة هنا إلى دور «الطّبقة المنتجة»[29] وتطوّرها بل وتجلّي «العنصر الفردي فإنّه يحدّد أهمّية دراسة مقولة الإنسان في سموّه وانحطاطه».[30] من الملاحظ أنّ لوكاتش قد أولى للرواية أهمية كبيرة في مجال بحثه لأنّها –في اعتقاده– تُمثّل الوجه الحقيقي والكاشف عن الواقع الاقتصادي والسياسي والدّيني والثّقافي للمجتمع.

كوّنت هذه المعطيات الخلفية الحقيقيّة للوسيان غولدمان لأنّه فعلاً قد «استوعب الإرث النظري لأستاذه لوكاتش فيما يتعلّق بمفاهيم البنية والشكل والنظرة الشمولية. وصاغ بدوره مقولات جعلها أساساً لدراسة الأعمال الروائية، قصد الوصول إلى الكشف عن التصوّرات الفكريّة التي تحملها، وكذا علاقتها ببيئة تكوينها، وهذا وفق منهجه الذي يسمّيه "**البنيويّة التكوينية**"».[31] ويلاحظ أنّ غولدمان في تحديده لهذا المصطلح قد استعاره من خلال تأَثُّرِهِ الكبير بالمنهج الماركسي ومن جان بياجيه بشكل أكبر.[32]

إنّ ما يميّز مشروع غولدمان أنّه «اتّخذ النقد الأدبي مجالاً أساسيًّا لبلورة منهج ينطلق من العمل الأدبي ذاته ومستعملاً منهجية سوسيولوجية وفلسفيّة لإضاءة البنيات الدّالّة وتحديد مستويات إنتاج المعنى عبر أنماط من الرؤية للعالم».[33] هذا المشروع الممنهج منح لغولدمان الرّيادة في تأسيس منهجٍ نقديٍّ يتخذ من الفلسفة مرتكزاً هامًّا؛ بغرض تحديد المغزى من الإنتاج الأدبي وفكّ شفرة معاني النصوص الأدبيّة. خاصّة «ومن ناحية أخرى فإنّ لوسيان غولدمان... كان في منتهى الوضوح فيما يخصّ حدود المنهجية التي يتبنّاها. ذلك أنّه يعتبر التّفسير السوسيولوجي هو أحد العناصر الأكثر أهمّية في تحليل عمل فنّي، مدققًا بأن هذا التّحليل لا يستنفذ النتاج، وبأنّه لا ينجح في فهمه أحياناً. إنّ التفسير السوسيولوجي لا يشكل إلاّ خطوة أولى ضرورية. و المهم هو العثور على المسار الذي عبّر فيه الواقع التاريخي والاجتماعي عن نفسه بواسطة الحساسيّة الفرديّة المبدع في النتاج الأدبي المدروس [وعليه تبيّن] أنّ البنيويّة التكوينيّة، ككل منهج علمي، ليست، في تصوّر غولدمان، مفتاحاً لكلّ شيء، بل منهجاً للعمل، منهجاً يتطلّب أبحاثاً تجريبيّة طويلة».[34]

أفرزت منظومة البنيويّة التكوينيّة قواعداً متّخذة في ذلك دعائم و مرتكزات في استبيان واقع النصوص الأدبيّة، الأمر الذي يتطلّب توافر أعمال تطبيقيّة كثيرة في هذا المجال، أعمالٌ تكشف حقيقة المنهج البنيويّ التّكويني. وبهذا الشّكل يكون غولدمان قد «تجاوز الآلية التي وقع فيها التّحليل الاجتماعي التقليدي للأدب، وذلك بتركيزه على بنية فكرية تتمثّل في **رؤية العالم** تتوسّط ما بين الأساس الاجتماعي الطبقي الذي تصدر عنه، والأنساق الأدبيّة والفنّية والفكريّة التي تحكمها هذه الرّؤية وتولّدها... فهي البنية المتوسّطة التي لا تفارق منشأها الاجتماعي...».[35]

إنّ اهتمام غولدمان اللّامتناهي بعلاقة البنية النصّية والتّاريخ كان قد سبقه في ذلك فريديريك جيمسون Frederic Jameson [1934م] النّاقد الأمريكي من خلال كتابه «سجن اللّغة: تقييم نقدي للبنيوية والشكليّة الرّوسيّة» (The Prison house of language: A critical Account of Structuralism and Russian Formalism)[36] والذي يُعَدُّ استجابة أمريكيّة يساريّة إلى شكليّة البنيويّة اللّغويّة والذي أيضاً طرح فيه قابليّة

انفتاح البنيّة على التّاريخ،[37] و«مضى بعيداً في تحديدها بوصفها وظيفة اجتماعيّة لحلِّ إشكالٍ بعيْنه. وهو التّحديد الذي انتهى به إلى تناول البنية في أفعال تولّدها المتعاقبة، ابتداءً من تولّد العمل الأدبي بنية متلاحمة عن رؤية بعينها للعالم...».[38]

إنّ الحديث عن العلاقة الموجودة بين العالم أو المحيط الاجتماعي و الأدب يجعلنا نقف أمام برهان قدّمه غولدمان؛ ذلك «أنّ العلاقات القائمة بين النتاج المهمّ حقًّا والمجموعة الاجتماعية، هي علاقات من نفس مستوى العلاقات القائمة بين عناصر النتاج وصورته الكلّية»؛[39] يبدو ممّا سبق أنّ غولدمان يُدمِجُ بنية المجتمع ببنية العمل الأدبي، وهذا ما عيب عليه جعله لجميع أجزاء العمل الفنّي كلّها تنحصر في خدمة البنية الاجتماعية التي هيّأت لولادة العمل الأدبي، إنّه حقًّا تصوّرٌ ضيّق من إمكانية أو طاقويّة النص الأدبي وحصرها ضمن دائرة المجتمع.

يذهب غولدمان في تصميمه للبنية الاجتماعيّة وعلاقتها بين أجزائها بالبنية الأدبية إلى احتكامها بعلاقات اجتماعية أحال إليها المبدع وأسهمت في إنتاج عمله الفنّي. إنّ ما يؤكّد هذه العلاقة التناظريّة قد طرحه غولدمان وفق ما يلي:

(أ) إنّ العلاقة الجوهرية بين الحياة الاجتماعية والإبداع الأدبي لا تتعلّق بمضمون هذين القطاعين من الواقع الإنساني، بل تتعلّق فقط بالبنيات الذهنيّة، أي بهذه المقولات التي تنظم في نفس الوقت الوعي التّجريبي لمجموعة اجتماعية والعالم المتخيّل المبدع من طرف الكاتب. ليست هذه البنيات الذهنيّة ظواهر فرديّة بل ظواهر اجتماعية، وهي لا تتعلّق المستوى المفهومي، أو بالمضمون أو بالنوايا الشعورية ولا تتعلّق بإيديولوجيا المبدع بل تتعلّق بما يرى، وبما يحسّ.

(ب) إنّ التناظر بين بنية وعي المجموعة الاجتماعية وبنية عالم النّتاج ليس تناظراً في منتهى الصّرامة والدّقة، إذ يمكن أن تكون أحياناً مجرّد علاقة غير دالّة.

(ج) إنّ البنيات الذهنيّة التي يتعلق بها الأمر هنا ليست لا بنيات شعورية ولا شعورية، بالمعنى الفرويدي للكلمة، بل هي بنيات تمثّل عمليّات غير واعية يمكن مقارنتها، في معنى من المعاني: بالبنيات العضليّة والعصبيّة التي تحدّد السّمة الخاصّة لحركاتنا وإشاراتنا،[40] هكذا تتجسّد علائقيّة البنية النّصيّة بالبنية الاجتماعيّة والتّي يمكن أن نسمّيها بالحتميّة التي تفرض وجودها؛ ليثبت غولدمان ما كان عازماً على إثباته.

استقبال البنيوية التكوينية في الوطن العربي:

يعدّ تلقي النّقد السوسيولوجي – عموما- والمنهج البنيوي التّكويني – خصوصا- في الوطن العربي مرحلةً جديدةً من الكتابات النقدية، مرحلة أسهمت في تدشين عصرٍ جديدٍ في عالم الأدب والنقد، فبعد ما قدّمه العرب من نماذج نقدية، حملت تصورات المناهج السياقية وبالأخص المنهج الاجتماعي والتّاريخي، نجد البنيوية التكوينية مكمّلةً لهذه الكتابات؛ لأنّها تعدّ مرحلةً متأخرةً عن تلك المناهج التّي تهتمّ بربط الأدب بواقعه ومنها نذكر: الناقد الكبير طه حسين الذّي قدّم في كتابه (في الشّعر الجاهلي) أفكار النقد التّاريخي وتأثّره به نتيجة دراسته بفرنسا، ولما رجع مصر حمل أفكار أبرز النقّاد الاجتماعيين الفرنسيين، فحاول التّجريب والبحث فيه، في حين قدّم محمود أمين

العالم كتابات تنص على التعريف بالبنيوية الشكلية والاتجاهات الفرنسية المعارضة لها، وما يلفت الانتباه ضمن هذا المجال نقده الباكر الذي وجهه إلى البنيويّة الشكليّة في مقالته «نقد جديد أمّ خدعة جديدة...» وفي سنة 1966م نشر مقالاته عن اتّجاهات الحركة "الهيكليّة" في فرنسا ضمن السلسلة التي أطلق عليها عنوان "البحث عن أوروبا"، والجدير بالذّكر أنّ مقالة العالم عن «الأدب وقوانين السّوق» التي نشرها في هذه السّلسلة (أوائل نوفمبر 1966م) كانت تقديمًا موجزًا للمدرسة الاجتماعية الجديدة لدراسة الأدب.[41] كما يُعرب محمود عبّاس العقّاد في كتابه (الديوان في الأدب والنقد) عن ميله للتجريب السوسيولوجي للأدب والنقد، فهو من أبرز النقاد الاجتماعيين والمؤسسين للاشتراكية فكرا وفلسفة.

شكلت البنيوية التكوينية على إثر ما قدمناه قفزةً نقديةً جديدةً، وهذا بعدما نشرت أفكارها عن ضرورة إيجاد علاقة تربط الفن بالمجتمع، ولم يكن هذا سوى ردا على البنيوية الشكلية التي ترفض إيجاد هذه العلاقة بل تجعل النص وليدا لذاته لا وليدا لبيئته، وفي الحقيقة أنّ ما آثرته البنيوية التكوينية من أفكارٍ نقديةٍ نجده قد أعاد روح المناهج الاجتماعية التّي تؤمن بفرضية أنّ الأدب مرآة للمجتمع، لذلك عُدّت البنيوية التكوينية موجةً ضاربةً في أعماق الأدب والنقد العربي، ومن النقّاد العرب الذّين اهتمّوا بالتأصيل والتجريب والترجمة لهذا المنهج السوسيولوجي نجد أوّلهم **السيّد ياسين** الذي سافر إلى فرنسا للدراسات العليا خلال سنوات العراك البنيوي، فراقب هذا العراك الذي ملأ الدّنيا وشغل الناس، متأملاً تياراته على النحو الذي انتهى إلى التّعاطف مع البنيوية التوليديّة، وبعد عودته من فرنسا أخذ ينشر في مجلّة "الكاتب" المصريّة سنة 1968م دراسته الأولى عن التّحليل الاجتماعي للأدب، إذ قدّم في ذلك أفكار جولدمان والفرضيّات الأساسيّة التي يقوم عليها منهجه. وهي الدّراسة التي نشرها مع غيرها من الدّراسات التي لم تخلُ من الحديث عن جولدمان ومدرسة النقد الاجتماعي الفرنسي في كتابه «التّحليل الاجتماعي للأدب» الذي صدر في القاهرة عن مكتبة الأنجلو سنة 1970م، رائدًا الطّريق التي مضت فيه كتابات مغربيّة ومشرقيّة،[42] بعده قدّم جمال شحيّد مقالته بعنوان «النّقد الأدبي الحديث كما يراه لوسيان جولدمان» في مجلّة "مواقف" سنة 1978م.[43] وفي سنة 1979م أعلن محمد برادة في كتابه (محمد مندور و تنظير النقد العربي) عن تبنّيه للمنهج البنيوي التكويني حيث يقول :" لقد آثرنا فيما يخصنا استيحاء المناهج الصادرة عن البنيوية التكوينية كما بلورها جورج لوكاتش و لوسيان غولدمان و بيير بورديو...".[44] أبدى النّاقد ميله الكلّي في كتابه هذا للتكوينيين لأنّ البنيوية التكوينية حسبه "تعطي أهمية قصوى للتاريخ بمفهومه الواسع والمعقّد"؛[45] ولذلك فهو لا يقصد الاهتمام بذاتيّة "مندور" أو بنفسيته، وإنّما يريد – على غرار جولدمان – أن "يفهم" كتاباته وأن "يفسّرها" في إطار التّحوّلات الثقافية والسياسيّة وذلك ضمن حقل أدبي، والمرتبط بدوره بحقل السّلطة، باعتباره خاضعًا لتكوينات اجتماعية طبقيّة.[46] ويعتقد برادة أنّه بإدماج مسيرة الإنتاج النقدي عند مندور في حركة التفاعلات الاجتماعية والثقافية بمصر، قد استطاع أن يدرك نوعية ذلك الإنتاج ويحدّد مكانته في إشكالية النقد الأدبي العربي الحديث. بل إنّه حريص على توثيق الترابط بين الفكر النقدي المندوري و رؤية بعض الجماعات أو التيارات التي أطّرته، ولكن ليس على أساس "تماثل" البنيات كما في نظر جولدمان، بل على أساس

وجود ما يسمّيه «اللّاوعي الثّقافي L'inconscient culturel»**... وهكذا، وبما أنّ برادة ينزع إلى كسر الحدود بين المناهج المعاصرة، ويستفيد مثلاً من إنجازات البنيوية الشكليّة، ومن شعرية الخطاب الروائي، فإنّ مفاهيم البنيوية التكوينيّة – وهي القاعدة الأساسيّة له– تتّسم عنده بنوعٍ من الاضطراب أو التّلوين الذي بإمكانه أن يُحْدِثَ خلخلة في نسقها العام، ويجعل من الصّعب تطبيقها تطبيقًا تامًّا ومثمرًا.[47]

وفي السّنة نفسها أصدر محمد بنيس كتابه (ظاهرة الشعر المعاصر في المغرب –مقاربة بنيوية تكوينية–)؛ إذ كانت له الرّغبة في قراءة النّصوص الشعريّة قراءة داخليّة "علميّة"، وقراءة اجتماعية تاريخيّة، على أساس أنّ للنّص الأدبي وظيفة اجتماعيّة بالإضافة إلى وظيفته الجمالية.[48] إذ قدّم فيها قدرة هذا المنهج على قراءة النصوص الشعرية، كما عرض فيه صورة جديدة للتجريب السوسيولوجي للشعر المغربي.

عرض النّاقد المصري جابر عصفور في كتابه (دراسات عن البنيوية التوليدية) سنة 1981م أسس البنيوية التوليدية لدى لوسيان غولدمان و قدّم في ذلك قائمة للدراسات الأدبية التّي تسير في الاتجاه السوسيولوجي. أمّا عن سعيد علّوش فقد اهتمّ في كتابه (الرواية والإيديولوجيا في المغرب العربي) سنة 1981م، بالدراسة والتّحليل مطبّقا طروحات البنيوية التكوينية، يقول: "بالنسبة لمنهجنا فقد وقع اختيارنا على البنيوية التكوينية كمنهج يلعب لوكاتش وغولدمان دورًا مهمًا فيه، ويسمح لنا هذا المنهج القيام بنوعٍ من المقابلة الموجودة بين البنيات الفوقية والبنيات السفلية، بين اللحظة التاريخية واللحظة الروائية، وأخيرا بين بنية الحديث الروائي و الإيديولوجيات السائدة"،[49] ومن هنا يعترف علّوش بالدّور المهم والفعّال للبنيوية التكوينية في الدراسات الأدبية كما يؤكّد على ضرورة الدراسة وفق هذا المنهج، والتّي تنطلق بالبحث عن البنيات المعارضة للأدب والمتمثّلة في النص ذاته إلى ما هو خارج النص، من أبرز مصطلحات البنيويّة التكوينية التي يتعامل معها سعيد علّوش؛ نذكر: «الوعي الواقع»، «الوعي الخاطئ»، «الوعي الممكن».[50]

في سنة 1981م برز للساحة النقدية كتابا جديدا للناقد جمال شحيّد موسوم بـ: (في البنيوية التركيبية دراسة في منهج لوسيان غولدمان) يوضح للقارئ سبب هذه الدراسة بقوله: "وليس من هذا المتطوّر النهضوي أقدم هذه الدراسة التي تعالج نزعة أوروبية في النقد الحديث وإنما من منظور المنهج الذي رسمته البنيوية التكوينية ..."،[51] يبدو محافظة النّاقد على الأساس النقدي للبنيوية التكوينية والذي يبدأ بتفكيك المكوّنات الداخلية للفنون الأدبية وصولا إلى ربطها بمحيطها، كما يعكس من جهة أخرى شغفه بتطبيق إجراءات البنيوية التكوينية.

طرحت النّاقدة اللبنانية يمنى العيد سنة 1983م في كتابها (في معرفة النص– دراسات في النقد الأدبي–) جانبا من مبادئ البنيوية التكوينية مطبّقة إياه على روايتي "المعلّم" لغالب هلسا و"موسم الهجرة للشّمال" للطيّب صالح باوية، مؤكدةً على مراحل التحليل التي لن تتوقف عند مرحلة التحليل الداخلي للنص، لأنّها ترى أنّ النص ليس معزولا عن الخارج الذّي كيّف الظّروف الثقافية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية لنشأته، فالكل متجانس ومتكامل ينتج في الأخير عملا متصّلا بمجتمعه.

ومن الكتب التّي أثبتت استحقاقها بالتأصيل والتجريب للبنيوية التكوينية نسبت للناقد المغربي حميد لحميداني في كتابه (الرواية المغربية ورؤية الواقع الاجتماعي ـ دراسة بنيوية تكوينية–) والذي صدر سنة 1984م، طرح فيه صاحبه الأسس النظرية للبنيوية التكوينية وراح يحلّل عيّنةً معتبرةً من الروايات المغربية ويربطها بظروفها المادية التّي شكلتها، كما بحث عن مراحل تشكّل الوعي من الفردي إلى الجماعي وتطوّره لروايات غلّاب والعروي وزفزاف وغيرهم، لتكون بذلك محطّةً كبرى في تاريخ النقد الأدبي العربي.

وخير ما نختم به ولا ختام في البحث، كتاب (الرؤية البيانية عند الجاحظ) لإدريس بلمليح، الصادر سنة 1984م، حيث طبّق فيه أهم إجراء في البنيوية التكوينية والمتجسّد في رؤية العالم، إذ حاول استنباط فكر المعتزلة لدى الجاحظ. وبالتالي يحقّ لنا أن نعدّ البنيويّة التّكوينيّة «أحد أكثر المذاهب النقدية الغربيّة انتشارًا في العالم العربي، وعلى نحو لم يتح للفرع الآخر من البنيويّة وهو البنيويّة الشّكلانيّة»[52] لتكون هذه المحاولات وغيرها قد مثّلت أسس المنهج البنيوي التّكويني وأعلنت استقبال هذا المنهج داخل منظومة النّقد العربي سواء بالتّنظير أو بالدّراسة والتّحليل والوصف أو بالتّرجمة، وكشفت عن خبايا كانت معقّدة مع البنيويّين الشكلييّن لفهم النص الأدبي. لذلك تقبّل البنيوية التكوينية «في السّبعينات، في موازاة شيوعها على المستوى العالمي، ولكن كان ذلك بعد إرهاصات أولية في النّصف الثاني من الستينيات لم يتأثّر بها المشهد الثقافي تأثّرًا فعّالاً يؤدّي إلى تغيير في الاتّجاه، ولعلّي لا أبالغ لو قلت إنّ ما انتقل من أفكار البنيويّة في هذه الفترة كان يؤدّي دورًا مزدوجًا، يفتح أفقًا جديدًا لتطوير المعرفة النقدية والوصول بها إلى مدى أعمق من الانضباط العلمي في جانب، ويواجه المزالق التي ينطوي عليها التّسليم بالبنيويّة الشّكليّة في تجاهلها للتّاريخ في جانب ثانٍ. وقد كان ذلك واضحًا على نحو ضمني على الأقلّ في الكتابات العربيّة المبكرة عن البنيويّة التوليديّة،*** وهي الكتابات التي كانت تعبيرًا فكريًّا بمعنى من المعاني عن موقف أصحابها الذين حاولوا كبح جماح البنيويّة الشّكليّة بالبنيويّة التّوليديّة، وردّ المتحمّسين لها إلى التّاريخ الذي حاولوا الفرار منه»،[53] يبدو أنّ البدايات الأولى لتأثّر النقاد العرب بالبنيويّة كان أوّلاً بالبنيويّة الشكليّة لرولان بارت ROLAND BARTHES التي رفضت مقولة التاريخ وموت الإنسان، إذ طبّق نقّاد العرب إجراءات المنهج البنيويّ الشكّلي على نصوص عربية قديمة وحديثة، غير مبالين بنقائص هذا المنهج، ولكن حينما طوّر أصحاب هذا المنهج وبدأوا يؤمنون بدور التّاريخ والفرد انتقلت هذه الفكرة إلى النقد العربي. وقاموا بترجمة أعمال الاتّجاه الجديد في البنيويّة والمعروف بالبنيويّة التّكوينيّة، بل وقاموا بتطبيق إجراءاتها التقنيّة على النّصوص السّرديّة العربيّة.

الخاتمة:

لقد كان لمناهج النّقد الأدبي السّلطة الكاملة في تسخير أسسهم النظرية وإجراءاتهم التطبيقية للفن، قصد تفكيكه والوصول به إلى استقراءات عديدة، فأثبتت بعض المناهج ذات المنحى الاجتماعي عن وجود علاقة تماثلية بين الأدب والمجتمع.

بنى المنهج البنيوي التكويني أفكاره وفق قواعد المنهج الاجتماعي الذيّ سعى لربط حبل الوصال بين بنيتي الأدب والمجتمع، ونتيجة لذلك شكّل خطوة جديدة في مسار الدّراسات الاجتماعية للأدب من زاوية جدليّة سوسيولوجيته. ويكون بذلك قد فسح المجال للظاهرة الأدبية من أجل دراستها دراسة نقدية نظاما ونسقا داخليا متماسكا، لا يمكن الوصول إليه إلا عبر البنية الدالّة، وهذا ما وصلنا إليه من رصد للبنيات الذهنية.

ما يميّز بنيوية غولدمان عن غيره عدم رفضه في استحضار بنى خارج نصيّة أثناء قراءة بنية العمل الأدبي هذا ما تَمثّله مؤسّسها في إجراءي التّفسير ورؤية العالم، اللّذان حقّقا في البنيوية التكوينية التفرّد لدى منهج غولدمان، كونهما يسعيان إلى تفسير وربط مجموعة من الإيديولوجيات المختلفة والّتي هي خارج النّصّ بواقع يحكمها، وعليه قد حدّدت له القيمة الجماليّة للعمل الأدبي. وعليه يبدو في قراءة رؤية العالم تُمتثل برؤية كلّية شموليّة ذات علاقة بالوعي الجماعي للزّمرة الاجتماعيّة والّتي قد ينتمي إليها المبدع من قريب أو بعيد وليس بالوعي الفردي.

إنّ في تقبّل المنظومة النقدية الغربية عُدَّ مشكلة في حدّ ذاتها، كونه يجسّد صورة الفكر النّقدي الأدبي العربي الضّعيفة التّي لا تستطيع الإتيان بالجديد، فما عساها أن تأخذ من الغرب وتطبّقه على ثقافتنا العربية. فوصفته بالابن الخاضع لقوانين السّلطة الكبرى، وما على النّقد الأدبي العربي سوى أن يحسن السّباحة بذكاء.

يلاحظ أنّ باب التّلقي للبنيوية التكوينية كان أوّلا مع المغاربة وليس المشارقة لأنّهم –المغاربة– سرعان ما انفتحوا على النّقد الأوروبي؛ ويرجع ذلك لحسن إتقانهم للّغة الفرنسية.

إنّ تصوير عدد كبير من النقّاد العرب الذّين تأثّروا بأفكار البنيوية التكوينية يرجع إلى قناعتهم في مدى قدرة هذا المنهج على استنطاق نصوص، كما عكس النجاح الباهر الذي حقّقه هذا المنهج من جهة وفي صرامته ودقّه مفاهيمه من جهة أخرى.

المصادر والمراجع:

1/ باسكادي، بون (1986م)، البنيوية التكوينية ولوسيان غولدمان، ترجمة: محمّد سبيلا. مؤسسة الأبحاث العربيّة، ط2، بيروت/لبنان.

2/ عصفور، جابر (1998)، نظريات معاصرة. الأعمال الفكرية (الهيئة المصرية العامة للكتّاب)، مصر، د.ط.

3/ لينهارت، جاك (1982)، من أجل إستيطيقا سوسيولوجية، محاولة لبناء إستيطيقا لوسيان غولدمان. ترجمة. أحمد المديني. مؤسّسة الأبحاث العربية، ط2، لبنان.

4/ شحيد، جمال(1983)، في البنيوية التركيبية، دار ابن رشد للطباعة والنشر، ط1.

5/ لحمداني، حميد (1990م)، النقد الروائي والإيديولوجيا من سوسيولوجيا الرواية إلى سوسيولوجيا التحليل الرّوائي، المركز الثقافي العربي، ط1، المغرب.

6/ علّوش، سعيد (1981م)، الرواية والإيديولوجيا في المغرب العربي، دار الكلمة للنشر، ط1، بيروت.

7/ عيلان، عمر (2011م)، في مناهج تحليل الخطاب السّردي، دار الكتاب الحديث، د.ط، القاهرة.

8/ غولدمان، لوسيان (2010م)، الإله الخفي، ترجمة: زبيدة القاضي. منشورات الهيئة السوريّة للكتاب، د.ط، دمشق.

9/ غولدمان، لوسيان وآخرون (1986م)، البنيوية التكوينية في النقد الأدبي. ترجمة: محمّد سبيلا. مؤسسة الأبحاث العربيّة، ط2، بيروت/ لبنان.

10/ غولدمان، لوسيان (1981م)، المنهجية في علم الاجتماع الأدبي، ترجمة: مصطفى المسناوي، دار الحداثة، ط 1، بيروت.

11/ بحري، محمد أمين (2015م)، البنيوية التكوينية من الأصول الفلسفية إلى الفصول المنهجية دراسة في نقد النقد، منشورات ضفاف، ط1، لبنان.

12/ برادة، محمد (2005)، محمد مندور وتنظير النقد العربي، المجلس الأعلى للثقافة، ط3، القاهرة.

13/ خرماش، محمّد (1991)، البنيوية التكوينية في الدراسات الأدبية في المغرب، مجلة فصول، القاهرة، يوليو، العدد 3-4.

14/ الرويلي، ميجان والبازعي، سعد (2002م)، دليل الناقد الأدبي المركز الثقافي العربي، ط3، الدار البيضاء/المغرب.

15/ Goldmann Lucien (1955), Le dieu caché ; étude sur la vision tragique dans les pensées de Pascal et dans le théâtre de racines, Gallimard, Paris.

16/ Goldmann Lucien (1970), sciences humaines et philosophie, édition Gallimard, paris.

الهوامش والإحالات:

* القراءة المحايثة Lecture immenance: وهي القراءة الداخلية و متعلّقة بالجانب الفنّي للعمل الأدبي. إذ تقرأ النّصّ لغة (صوتاً، صرفاً، نحواً، دلالةً) بمعزل عن السّياق التاريخي والاجتماعي والثقافي الذي نشأ فيه العمل الفنّي، ليكون إجراؤها نسقيا بحثا معترفا بنظامها الدّاخلي عازلا النّص عن وجود أيّة علاقة له بعالمه الخارجي فجماليته تكمن في عزله.

[1] محمد أمين بحري: البنيوية التكوينية من الأصول الفلسفية إلى الفصول المنهجية دراسة في نقد النقد. منشورات ضفاف، لبنان، 2015م، ط1، 139.

[2] جاء في قاموس لاروس فرنسي فرنسي عربي ما نصه: les lois génétique se sont les lois l'hérédité.أنظر قاموس لاروس فرنسي فرنسي عربي، مكتبة ناشرون 1997م، بيروت، مادة gène، ص 295. نقلا عن: محمد أمين بحري: البنيوية التكوينية من الأصول الفلسفية إلى الفصول المنهجية دراسة في نقد النقد. 139.

[3] المرجع نفسه. الصّفحة نفسها.

[4] محمد أمين بحري: البنيوية التكوينية من الأصول الفلسفية إلى الفصول المنهجية دراسة في نقد النقد .ص ص 140- 141.

[5] المرجع نفسه. ص 141.

[6] لوسيان غولدمان وآخرون: البنيوية التكوينية في النقد الأدبي. ترجمة: محمّد سبيلا. مؤسسة الأبحاث العربيّة، بيروت -لبان-، 1986م، ط2، ص 7.

[7] لوسيان غولدمان وآخرون: البنيوية التكوينية في النقد الأدبي. ترجمة: محمّد سبيلا. ص 8.

[8] لوسيان غولدمان: المنهجية في علم الاجتماع الأدبي. ترجمة: مصطفى المسناوي. دار الحداثة، بيروت، 1981م، ط 1، ص 14.

[9] حميد لحميداني: النقد الرّوائي والإيديولوجيا. من سوسيولوجيا الرّواية إلى سوسيولوجيا التّحليل الرّوائي. المركز الثقافي العربي، 1990م، ط1، ص68.

[10] لوسيان غولدمان: المنهجية في علم الاجتماع الأدبي. ترجمة: مصطفى المسناوي. ص 14.

[11] Voir : Lucien Goldmann : sciences humaines et philosophie, paris, édition Gallimard, 1970, p158.

[12] عمر عيلان: في مناهج تحليل الخطاب السّردي. دار الكتاب الحديث، القاهرة، 2011م، د.ط ص201.

[13] لوسيان غولدمان: المنهجية في علم الاجتماع الأدبي. ترجمة: مصطفى المسناوي. ص14.

[14] المرجع نفسه. ص 17.

[15] بون باسكادي:البنيوية التكوينية لوسيان غولدمان. ترجمة: محمّد سبيلا. مؤسسة الأبحاث العربيّة، بيروت –لبان–، 1986م، ط2. ص23.

[16] لوسيان غولدمان: الإله الخفي، ترجمة: زبيدة القاضي. منشورات الهيئة السوريّة للكتاب، دمشق، 2010م، ص26.

[17] جاك لينهارت: من أجل إستيطيقا سوسيولوجية، محاولة لبناء إستيطيقا لوسيان غولدمان. ترجمة. أحمد المديني. مؤسسة الأبحاث العربيّة، بيروت – لبان–، 1986م، ط2ص 62.

[18] لوسيان غولدمان: المنهجية في علم الاجتماع الأدبي. ترجمة: مصطفى المسناوي. ص 14.

[19] بون باسكادي: البنيوية التكوينية و لوسيان غولدمان. ترجمة: محمّد سبيلا. ص 22.

[20] Voir : Lucien Goldman : Le dieu caché ; étude sur la vision tragique dans les pensées de Pascal et dans le théâtre de racines, Paris, Gallimard, 1955, P 111.

[21] لوسيان غولدمان وآخرون: البنيوية التكوينية في النقد الأدبي. ترجمة: محمّد سبيلا. مؤسسة الأبحاث العربيّة، بيروت –لبان–، 1986م، ط2، ص 7.

[22] المرجع السّابق، ص 8.

[23] عمر عيلان: في مناهج تحليل الخطاب السّردي. ص175.

[24] المرجع نفسه، ص 175.

[25] عمر عيلان: في مناهج تحليل الخطاب السّردي. ص ص 176 ،177.

[26] المرجع نفسه. ص 180.

[27] حميد لحميداني: النقد الروائي والإيديولوجيا –من سوسيولوجيا التحليل الروائي. ص 61.

[28] المرجع نفسه. ص 64.

[29] عمر عيلان: في مناهج تحليل الخطاب السّردي. ص181.

[30] المرجع نفسه.

[31] المرجع نفسه. ص ص 189، 190.

[32] ينظر: ميجان الرويلي وسعد البازعي دليل الناقد الأدبي. الدار البيضاء –المغرب–، 2002م، ط3.ص ص76 ،77.

[33] لوسيان غولدمان وآخرون: البنيوية التكوينية في النقد الأدبي. ترجمة: محمّد سبيلا. ص 9.

[34] المرجع السّابق. ص 42.

[35] جابر عصفور: نظريات معاصرة. الأعمال الفكرية (الهيئة المصرية العامة للكتّاب)، مصر، 1998م، د.ط، ص 108.

[36] ينظر: فريديريك جيمسون: سجن اللّغة: تقييم نقدي للبنيوية والشكلية الروسيّة. مطبعة جامعة برنستون الأمريكيّة. 1972م.

[37] ينظر: المرجع نفسه. ص ص 96 ،97 ،98.

[38] جابر عصفور: نظريات معاصرة. ص 98.

[39] بون باسكادي: البنيوية التكوينية و لوسيان غولدمان. ترجمة: محمّد سبيلا. ص 44.

[40] المرجع السّابق. ص 45.

[41] جابر عصفور: نظريات معاصرة. ص ص 103،104.

[42] جابر عصفور: نظريات معاصرة. ص ص 104،105.

[43] المرجع نفسه.الصفحة نفسها.

[44] محمد برادة: محمد مندور و تنظير النقد العربي. المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2005، ط3، ص 28.

[45] المرجع نفسه. ص 29.

[46] المرجع نفسه. ص 22.

** اللّاوعي الثقافي؛ وهو مصطلح يريد أن يطعم به البنيوية التكوينية؛ وقد أخذه عن الباحث الفرنسي "بيير بورديو" الذي يفهمه بأنّه حصيلة منظومات التفكير التي تؤثّر على الكاتب وتحدّد أدوات التصوّر والتّحليل والتّعبير لديه... محمّد خرماش: البنيوية التكوينية في الدّراسات الأدبية في المغرب. مجلة فصول : يوليو 1991، القاهرة، العدد 3-4، ص 121.

[47] محمّد خرماش: البنيوية التكوينية في الدراسات الأدبية في المغرب. ص 121، ص 123.

[48] المرجع نفسه. ص 124.

[49] سعيد علّوش: الرواية و الإيديولوجيا في المغرب العربي. دار الكلمة للنشر، بيروت، 1981، ط1، ص 21.

[50] المرجع نفسه. الصّفحة نفسها.

[51] جمال شحيد: في البنيوية التركيبية. دار ابن رشد للطباعة و النشر، 1983، ط1 ص 237.

[52] ميجان الرويلي وسعد البازعي: دليل النّاقد الأدبي. ص 79.

*** البنيويّة التوليديّة يقصد بها التكوينيّة. وذلك ناتج عن التّرجمات التي قوبلت بها: كالتركيبية والهيكليّة الحركيّة. يُنظر: المرجع، نفسه. ص 83.

[53] جابر عصفور: نظريّات معاصرة. ص 103.